طارق علي مفككا جدلية «الإمبراطورية والمقاومة»:

وجود إمبراطورية تسعى إلى الهيمنة من دون مقاومة قول يستدعي الضحك وأزمة الغرب الأساسية تكمن في امتلاك ذاكرة قصيرة جداً!

منتصر حمادة*

■ كاتب معروف بمواقفه الجريئة والشجاعة، دار نشر مرموقة، صراحة غير معهودة في تقييم أهم أحداث الساعة، ترجمة إبداعية.. كوكتيل من المقدمات لا يمكن إلا أن يُؤسس لعمل إبداعي متميز: نحن في ضيافة كتاب «طارق علي: عن الإمبراطورية والمقاومة». (دار الآداب. بيروت. الطبعة الأولى ,2006 215 صفحة).

والكتاب عبارة عن مجموعة حوارات أجراها دايفيد بارساميان مع طارق علي بين الأعوام 2001 و2005، وتدور بشكل خاص حول الإمبراطورية الأمريكية والبريطانية، وتاريخ باكستان والهند، والمقاومة في فلسطين والعراق وأمريكا اللاتينية، ونشوء الأصوليات الدينية، والبحث عن اشتراكية ديمقراطية بديلة.

ودايفيد بارساميان هذا، المحاور (بكسر الواو)، والحق يقال، يحتاج إلى من يحاوره أيضا، نظرا لتمكنه من تفكيك القضايا التي خاض فيها مع طارق علي في هذا الكتاب أو مع أسماء وازنة في كتب أخرى، نذكر منها على وجه الخصوص إقبال أحمد وإدوارد سعيد ونعوم تشومسكي وهوارد زن، وأورنداتي روي، وغيرهم كثير. ولمن لا يعرف بارساميان، فإنه يشتغل مديرا «للراديو البديل» (Alternative Radio) في بولدر بولاية كولورادو الأمريكية.

أما طارق علي، فقد ازداد عام 1943 في لاهور، التي كانت آنذاك جزءا من الهند الواقعة تحت الحكم البريطاني ولكنها تقع اليوم في باكستان. وهو يعيش منذ عدة أعوام في لندن ويرأس تحرير مجلة «نيولفت ريفيو» (مجلة اليسار الجديد). له أكثر من عشرة كتب في السياسة والتاريخ، ومنها «صدام الأصوليات» و«بوش في بابل» و«سنوات حرب الشوارع» (كتاب مذكرات). كما أن الرجل معروف عنه التأليف في مجالات الرواية والمسرح وهو أيضا منتج أفلام.

إعادة قراءة التاريخ

نبدأ برؤى طارق علي لبعض أسباب تعاطي الغرب الإمبراطوري مع قضايا العالم الثالث، ومنها القضايا العربية بالخلفية الذهنية والمفاهيمية التي تميزها أحداث الساعة، مشيرا إلى أن السبب في نجاح الغرب في الإفلات بهذه التصورات الكاريكاتورية الفجة ـ اتجاهنا على الخصوص ـ يعود إلى تعرض التاريخ للانتقاص التام. ولهذا، يضيف علي، فإننا اليوم إزاء شعوب في الغرب تمتلك ذاكرة قصيرة جدا. وأحد أسباب ذلك هو أنه في السنوات الخمس عشرة الأخيرة حصل تراجع كبير في التغطية التلفزيونية لبقية أرجاء العالم، وفي الوقت ذاته تم إنتاج سلسلة من الأفلام المؤمثلة والوثائقية، التي لا تنتهي، عن الحرب العالمية الثانية. كما أن التاريخ الحديث يتم تجاهله عمليا من قبل المؤسسات الإعلامية الأمريكية، بحيث يقل الاطلاع على ما يجري في باقي دول العالم: نحن حيال ثقافة ريفية جدا تنتج الجهل، ومثل هذا الجهل مفيد جدا في أوقات الحرب لأننا نستطيع إذاك أن نشعل غضبا سريعا في شعب فقير بالمعلومات وأن نشن حربا ضد أي بلد.

والمثير، أن كل هؤلاء «الصحافيين» العظام يسافرون في شتى أرجاء العالم لكنهم يغفلون عن أهم النضالات الحاصلة، لأن أعينهم لا تتركز إلا على ما يلزم أن يكتبوا عنه لجرائدهم ـ والإحالة واضحة هنا إلى توماس فريدمان وأمثاله ـ فتغطية الإعلام الأمريكي للاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، مثلا، منحاز إلى درجة يبدو معها وكأن الفلسطينيين هم الذين يحتلون أراضي يهودية وأن الإسرائيليين يقاومون قوة فلسطينية هائلة.

ليست الولايات المتحدة سوى الإمراطورية الوحيدة المهيمنة على العالم، ولا تنقص الأدلة الميدانية التي تُزكي ما يذهب إليه هذا الناقد الجاد، فحرب الكوسوفو مثلا تمت خارج إمرة قيادة حلف «الناتو»، الذي هُمِّش تماما. أما «التحالف ضد الإرهاب» فإنه يعني أساسا الولايات المتحدة التي لا تريد أن يتدخل في استراتيجيتها أحد. وعندما عرض الألمان ألفين من جنودهم ـ إبان غزو أفغانستان ـ صرح دونالد رامسفلد إنه لم يطلب ذلك أبدا.

لا يتردد طارق علي في مسائلة الرأي العام الأمريكي، ملاحظا أن أغلب المواطنين الأمريكيين يعيشون في راحة ويعبون الوقود عبا، ولكن عليهم أن يفهموا من أين يأتي هذا الوقود، وعليهم أن يفكروا في الناس الذين يعيشون في تلك المناطق الأخرى من العالم، وكيف تؤذيهم السياسات الأمريكية. وعليهم أن يسألوا أنفسهم، من أجل أطفالهم وأحفادهم والأجيال القادمة: «أنستطيع أن نواصل العيش في عالم قلبت أولوياته إلى هذا الحد؟».

خلافات حول غنائم الحرب

يطغى موضوع الحرب على العراق بشكل لافت في ثنايا الكتاب، ولا تخرج خلاصة صاحبه عن نتيجة يراها حتمية، ومفادها أن «الشيء الأكيد الذي لن تحققه الحرب هو وقف الإرهاب»، إن لم نقل أن «الحرب على العراق ستزيد الإرهاب، لأنه كلما ازدادت البلدان المدمرة ازداد طالبو الثأر». والأدهى أن معظم أنصار بوش من كتاب الصحافة الأمريكية يكادون لا يبذلون أدنى جهد لإخفاء هذه المشاعر، مستشهدا في هذا الصدد بالعديد من الأسماء، بدءا بكريستوفر هيتشز الذي يضع كلمة المقاومة (العراقية) بين مزدوجين، مع أن ما ينبثق في العراق إنما هو مقاومة بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، وهي تتطور أسرع كثيرا من سابقتها في فرنسا، ونهاية بفريدمان طبعا، فهذا الأخير، وفي معرض حديثه عن أحداث العراق، نجده، حسب تقييم طارق علي، ينطق بالأمور جهرا، فهو يقول إنه سيكون مضحكا التظاهر بأن الحرب ليست من أجل النفط، والحقيقة هي أنها ليست من أجل النفط وحده، والأمريكيون صرحاء في هذا الجانب، إنهم يقولون: «هذا هو الوضع، نحن أقوى قوة في العالم، وهذه هي مصالحنا الاقتصادية، وهذه هي مصالحنا الاستراتيجية، وهذه هي مصالحنا الجيوسياسية والأفضل، أيها الناس، أن تتنبهوا، لأننا سندافع عنها». إنها سمات الإمبريالية.

إنها حرب من أجل النفط إذن، وتمتد

شجاعة المؤلف إلى درجة الحديث عن حرب من أجل الإرهاب وليست حربا ضد الإرهاب، وإنها لمصادفة جغرافية وتاريخية أن أغنى مخزونات النفط تقع تحت الأراضي الإسلامية. هناك نفط في بروناي (في جنوب شرق آسيا) وفي العراق حيث يوجد ثاني أكبر احتياطي للنفط، وفي إيران وفي الخليج العربي، ولو لم يكن نفط هناك وكان النفط في بلاد أخرى، ولنفترض أنه كله أو معظمه في أفريقيا، لأصبحت هذه البلاد هي العدو، ولقال الغرب «إن هؤلاء (الأفارقة) ليسوا مسيحيين حقيقيين، فهم لم يتعلموا المسيحية الحقة. والإحالة هذه المرة على تيار «المحافظين الجدد» في الإدارة الأمريكية.

إن إحداث تغيير في نظام دولة صغيرة أمر مُستفز بشكل عام، ولكنه مقبول اليوم فقط حين تُمارسه الولايات المتحدة، ولا علاقة له بما يُسمى «الحرب الحضارية» (بتعبير المهدي المنجرة أو «صدام الحضارات» بتعبير صامويل هنتنغتون)، نحن إزاء صدام بين السكان الأصليين الذين صادف أنهم مسلمون والإمبراطورية الكبرى والأقوى في العالم، والتقييم لطارق علي دائما، وهو مؤلف كتاب «صدام الأصوليات» حيث تحدث مليا عما وصفه بصدام بين أصولية دينية صغيرة وبين أم كل الأصوليات، أي الأصولية الإمبريالية الأمريكية، والتي «تستخدم اليوم عضلاتها الاقتصادية والعسكرية من أجل إعادة تشكيل العالم وفقا لحاجياتها ومصالحها». وقدر المقاومة ضد هذه الإمبراطورية أن تنشأ صحيح أن هذه المقاومة، في اللحظة الراهنة، تتخذ شكل أصولية مغالية في التدين، وهي لن تنجح لأنها لا تقدم شيئا ـ نموذج صريح في النقد المزدوج الغالي على فكر عبد الكبير الخطيبي ـ غير أن ذلك سيتغير، وستنبثق أشكال أخرى من المقاومة. وأما القول بإمكانية وجود إمبراطورية كبيرة تسعى إلى الهيمنة على العالم من دون أن تتعرض للمقاومة على الإطلاق فهو قول يستدعي الضحك.

(وجب التذكير إلى أن الجزء الثاني من رائعة «صدام الأصوليات» صدرت ترجمته مؤخرا تحت عنوان «مئة عام من العبودية»، وقد أشار طلعت مراد، مترجم الكتاب، إلى أن مشروع طارق علي لصدام الأصوليات «لا يعدو أن يكون قراءة عكسية لنهاية التاريخ عند فوكوياما، وصدام الحضارات صمويل هنتنغتون، فما الأصوليات المتصارعة التي يترصد خطواتها طارق علي إلا الأساس الأرثوذكسي للفكرانيات، وهي نفسها الحضارات إذ أنها تحمل أبجديتها وما بين هذه وتلك يكمن التعصب، لب الفكرانية والأصولية وراعي الحضارات وحارس بابها». انظر طارق علي. مئة عام من العبودية. ترجمة وتعليق: د.طلعت مراد. منشورات: كتاب فضاءات ـ 7, طرابلس/2005)

تبقى إشارة أخيرة حول موضوع الحرب على العراق، وتهمنا كثيرا لأنه تضيف وجهة نظر مغايرة عن بعض أسباب الخلاف الأمريكي الأوروبي حول قرار شن الحرب، وسبق أن أشرنا إلى أهم أسباب هذا الخلاف بالصيغة الواردة في كتاب «أبعاد الصراع الفرنسي الأمريكي حول المغرب والشرق الأوسط وإفريقيا» للكاتب المغربي حسن مصدق، ومنها على الخصوص تأسيس الرؤية السياسية الأوروبية على عدم قبول شعار تغيير الأنظمة بالقوة، خلافا للرؤية الأمريكية، أو مطالبة الأوروبيين بتطبيق القانون، وفتح المجال للتعددية السياسية والقيام بإصلاحات تدريجية في ميدان حقوق الإنسان، وهي عكس استراتيجية الولايات المتحدة التي تقوم على التلويح بفرض الديموقراطية بالقوة والتهديد وتغيير الأنظمة الشريرة والمارقة أو الخارطة الجيوسياسية في الشرق الأوسط. (انظر العرض الذي أنجزناه في الكتاب. الصحراء المغربية. عدد 2006/3/25)، لولا أن ضيف هذا العرض يرى أن الخلاف يكمن بالدرجة الأولى في تبعات عقود إعادة إعمار العراق التي يجري التداول فيها، والتي ستكون كلها من نصيب الشركات الأمريكية تقريبا: لقد اتضح أن الحرب قائمة بين فصائل مختلفة في الشمال تتصارع في ما بينها على حصتها من الغنيمة.

«عرب البيت» الأبيض

نختتم هذا العرض بالتوقف عند نقد طارق علي لمن يصفهم بـ«عرب البيت»، وهذه تسمية طريفة ودالة تهم الأقلام العربية المتهمة بالتأمرك، أو التي تريد أن تصبح أمريكية أكثر من الأمريكيين، إنها شخصيات تحتاجها الإمبراطورية وتربيها الأكاديميا، نذكر منهم فؤاد عجمي وكنعان مكية، ممن يسعون إلى إرضاء الإمبراطورية وخدمة حاجاتها وهم ـ في حالة عجمي ـ عديمو الحياء تماما في كيفية إذلال أنفسهم أمام الإمبراطورية. فهلاء الرجال يقولون أمورا يفكر فيها كثير من الأمريكيين دون أن يجرؤوا الأخيرون على الجهر بها، وتلك هي قيمة «عرب البيت»: إنهم مستعدون للجهر بمشاعر يفضل أميركيو الطبقات الحاكمة وأميركيو المؤسسة الحاكمة.

وتشتق هذه التسمية من الوصف العظيم الذي قدمه مالكولم إكس عن المتعاملين القدماء مع الإمبراطورية بل يذهب طارق علي إلى أن «عرب البيت» أسوأ ممن سماهم مالكولم «زنوج البيت»، فهؤلاء كانوا عبيدا في نهاية المطاف.

أما «عرب البيت» فأفعالهم طوعية كليا، وهذا ما يجعلها أسوأ بكثير، بحيث فقدوا كل إحساس بالموضوعية. إنهم يسعون لأن يكونوا مستشارين لدى الإمبراطورية، ليقولوا لها: «أنت لا تقومين بعملك بما يكفي من الإتقان.

إليك كيف تحسنين عملك قد يموت ناس، نعم، ولكن ما الضرر في ذلك؟». ويجد «عرب البيت» موقعهم الملائم في الإعلام الأمريكي الذي يصفه الكاتب بـ«المنحط»، لأنه إعلام يبحث عن أشخاص لكي يثبت أن هناك عربا يقفون في «الصف الأمريكي»، ولسان حال هذا الإعلام»: أنظر ما أذكاهم، إنهم «أذكياء» لأنهم يقولون ما يريد الناس ـ في المؤسسة الغربية الحاكمة ـ سماعه، إنهم مُفيدون ولذا ينبغي استعمالهم».

وما أكثرهم اليوم في زمن الإمبراطورية الأمريكية.

---

* كاتب من المغرب

السادس والثلاثون

سعدي يوسف

«حفيدُ امريء القيس» الذي صدر مؤخراً، عن «دار المدى» بدمشق، في مائتين وست عشرة صفحة من القَطع المتوسط..

«حفيدُ امريء القيس»، هذا، هو كتابي الشعريّ السادس والثلاثون.

قد يقول قائلٌ، وله الحقُّ في ذلك: لكنّ العِبْرةَ ليست في العدد.

العِبرةُ ليست في العدد قطعاً، إنها في المعدود.

أمباهاةٌ بالوصول، أم احتفاءٌ بالطريق؟

أظنني ميّالاً إلى أطروحة الطريق الطويل، التي لا أطروحة سواها إنْ أخذنا الفنّ مأخذَ الجِدّ. الجدوى، ذاتُ القيمة السائدة في التعامل اليومي العاديّ، ليست واردةً على امتداد الطريق الطويل. الفن خيارٌ ملتبسٌ. لأنه في لحظةٍ واحدةٍ وحيدةٍ، حسبُ، في حياة المرء، يبدو الخيارَ الأفضل، بل الفريدَ.

هل تُمْكِنُ المراجعةُ؟

نعم..

يحضرني الآنَ حديثٌ لـ«جون لِينون» مغني البيتلز والعازف ومؤلف الأغاني، القتيل في شبيبته برصاصات مارك ديفيد تشابمان، ذات يومٍ في نيويورك، في الثامن من كانون أول 1980، أمام باب منزله. سُئِلَ لينون، إن كان سيختار سبيلاً آخر لو استطاعَ.

أجاب: وددتُ لو كنتُ صيّادَ سمكٍ. لو استطعتُ أن أكون غيرَ ما أنا الآنَ لفعلتُ. أتدري ما الأمر؟ ليست مزحةً أن تكون فناناً. أتعرف ما الكتابةُ؟ إنها ليست مزحةً. إنها تعذيب. قرأتُ عن فان غوخ وبيتهوفن، كليهما، وقرأت في اليوم التالي مقالاً وردَ فيه أنه لو كان لديهم آنذاك أطبّاء نفسانيون لمَا كانت لدينا لوحات فان غوخ العظيمة. وهؤلاء الأوباش يمتصّوننا حتى الموت. يريدوننا أن نفعل كما تفعل حيواناتُ السيرك. أنا مستاءٌ من كوني فناناً بهذا المعنى. مستاءٌ من تقديم فني إلى قومٍ بُلَهاء لايفهمون شيئاً. هم لايستطيعون أن يحسّوا بأنني أنا الرجلُ ذو المشاعرِ لأنني المرءُ الذي يُعَبِّرُ. أولئك يحيَوْن من خلالنا، نحن الفنانين..

وددتُ لو كنتُ صيّادَ سمكٍ!

جون لينون قال ذلك في العام 1970، وهو في الثلاثين من عمره.

كان بمقدوره أن يعود صيادَ سمكٍ!

أمّا أنا..

***

التفكّرُ في الفنّ الشعريّ يعيدُ المرءَ، أحياناً، إلى التفكّرِ في جدوى الوجود الشخصيّ، ما دامَ الفنُّ والشخصُ مرتبطَين ارتباطاً لا بديلَ منه ولا فكاك.

صحيحٌ أن الدورة الفيزيقية لابن آدمَ ذاتُ قدرٍ واضحٍ من العبثية والحتمية المقرفة، لكنْ قد يَرِدُ سؤالٌ: إنْ كانت هذه الدورةُ مقررةً، مقدّرةً، منذ إقامة الإنسان في الأرض، أفليسَ ممكناً الوصولُ إلى صيغةٍ فضلى كي تغدوَ أيامُنا أجملَ وأصفى وأكثرَ استشرافاً؟

أن تكونَ فناناً يعني أن تكون مسؤولاً، بذاتكَ أولاً، عن تناول الحياة كما تُتناولُ فاكهةٌ ذاتَ مذاقٍ.

أهي الرسالةُ الخفيّةُ للفنّ، منذ رسومات الكهوف الأولى؟

أليست ثيرانُ الكهوف أجملَ وأرقَّ من ثيرانِ المَناقع؟

***

الكتابُ الشعريّ السادسُ والثلاثون..

هل بدأتْ معهُ، وحَولَهُ، مغامرةٌ ما؟

بعد أكثرَ من نصف قرنٍ، مغالَبةً، ومجاهَدةً، في حيثيّات الحِرفة والمُحترَف والحرف، بدأتُ أتلمّسُ حريةً طريّةً:

صرتُ أُجيزُ لنفسي ما لم أكن لأجيزهُ، من قبلُ.

كأنْ أُنَوِّعَ في الموسيقى.

أو أشتقَّ كلماتٍ ليست في القاموس.

أو أنتهكَ، في القول، محرَّماتٍ لم أكن لأجرؤَ على أمثالها، في ما سلفَ من زماني.

الإيغالُ، ومحاولةُ التغلغُلِ، في الطبيعة.

الاعتمادُ، أكثرَ، فأكثرَ، على أخلاقية الحواسّ.

الإعراضُ المتواترُ، المتوتر، عن العابرِ، وغيرِ المتّصلِ بالجوهريّ.

***

نحن في الحادي والعشرين من أيّار.

اليوم أحدٌ.

والشمسُ التي تبدّتْ، دقائقَ، اختفتْ خلفَ غيمٍ ليس ثقيلاً.

شرعت القطراتُ الأولى ترسُمُ على زجاج النافذة أشكالَها، المختلفة كلَّ مرة.

وعلَيَّ أن أراقبَ المشهدَ:

مَنْجاتي

وسبيلي الوحيدُ إلى مقاربة الفن والحياة، في آنٍ.

***

لم يحتفلْ أحدٌ معي بصدور كتابي الشعريّ السادس والثلاثين.

سأردد مع والت ويتمان:

أحتفي بنفسي!

لندن 2006/5/21

كتاب جديد لمحمد كريشان عن الجزيرة .. وأخواتها

لندن ـ «القدس العربي»:

بين صفحات هذا الكتاب، الذي صدر حديثا عن سلسلة براعم، نتلقف مجموعة من المقالات التي تطال محاور مختلفة من فضاءات الإعلام المعاصر، عربيا وعالميا. مقالات أعدت للصحافة أحيانا لتعبر عن تفاعل الإنسان والصحفي مع الحدث، وأحيانا أخرى لتفتح باب النقاش في موضوعات لم يعد بالإمكان ولوج ثورة الاتصالات بالمعنى الواسع دون مناقشتها وتناولها بعمق.

«الجزيرة» حاضرة فيها بقوة. ليس كونها قناة محمد كريشان كما سنلاحظ، وإنما لأن مغامرة «العصيان على الرقابة» بدأت بأوسع المعاني باللغة العربية السمعية البصرية مع تجربة الجزيرة. تجربة رائدة رفعت سقف الحريات وباتت، بإرادتها أو رغماً عنها، بارومتر أية قناة فضائية.

تتيح هذه المقالات اكتشاف العلاقة الوطيدة بين حرية التعبير ومهنية الصحفي. كما ويبرز تباعا خط مشترك أوحد لها، اسمه همّ انتقال الإعلام العربي إلى مكان طليعي في الخارطة الإعلامية الدولية. ذلك عبر نقد الذات واكتشاف عيوب من سبق ومحاولة استقراء وسائل التقدم. بحيث يتجلى القاسم المشترك الأعلى والذي هو حرية الصحافة وحماية المهنة والدور الريادي للإعلامي العربي وعدم الوقوف موقف المتفرج في المنعطفات والأحداث التي يعيشها العالم.

نشر هذا الكتاب في سلسلة براعم يقع ضمن تصور اللجنة العربية لحقوق الإنسان، لضرورة فتح أوسع نقاش بين عالم حقوق الإنسان وعالم الصحافة. ذلك باعتبار التضامن والتفاعل بين السلطة الرابعة والسلطة المضادة ضرورة ماسة لإصلاح حال أية سلطة ولتجنب الوقوع قدر الإمكان فيما يعرف بجنوحات ممارسة السلطة.

ـ محمد كريشان
«الجزيرة .. وأخواتها »
الطبعة الأولى 2006
جميع الحقوق محفوظة
ـ الناشر المؤسسة العربية الأوربية للنشر (باريس) اللجنة العربية لحقوق الإنسان الأهالي للنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ص.ب 9503

قص

وفيات اليوم

محمد السمهوري*

■ نظر لها وهو يتابع نشرة الاخبار المسائية .. شرب رشفة من كأس الشاي وهو يتحسس طرف الكنبة بتوتر، نظرت له خلسة دون أن ينتبه، وتابعت شاشة التلفزيون.. همهم قائلا: «علينا ان نغير هذه القناة اريد ان اشاهد قناة الحيوانات».

أمسكت بجهاز التحكم وبدأت تبحث عن الغابات في شاشة التلفزيون لغاية ما توصلت لها.

ـ إن الاسود يثيروننني بكسلهم... انبطاحهم المتواصل... انقضاضهم على الفريسة الغبية. طريقة التهامهم للحم.. خضوع اللبوءة لهم.. رغم أنها عامود العائلة، المسألة ليست ذكورة بالمعنى الذي نفهمه نحن بل الذي تفهمه الغابة وقوانينها.

شاحت بوجهها وهي تتابع الضباع وهم يحاولون النيل من بعض ما تبقى من جيفة الثور تركته الاسود واضجعت تتثاءب، وظلت صامته حانقة تتابع التلفزيون وهي تستمع له.

ـ سئمت حياتي.

ظلت متوترة تهز قدمها اليسرى.. دون ان تنبس بكلمة.

ـ عاد يقول نعم ان حياة الغابة أجدى أن نتعلم منها أكثر من صراخ جاري الفاشل على أبنائه الفاشلين في كل شيء. وأجدى أيضا مما أفعله من أجل كل من هم حولي، «موجها كلامه لزوجته» وأكثر جدية منك أنت التي تجلسين تبثين توترك لأسباب أجهلها، وعليّ أن أقرأ «البخت» لكي أعرف بما تفكرين.

وواصل: وأجدى أيضا بالوقت الذي يمضي عليّ، وأنا أتحول إلى إنسان يلبس البيجاما، ويتعشى ويسأل عن دورس تافهة تؤدي في نهاية الامر بالابناء الى البطالة والتسكع في الشوارع، وأجدى بأن أفهم ما يحصل لك ولي.. بيتي التافه هذا الذي أدفع أجرته رغم أنه لا يستحق، التزاماتي تجاه الضرائب والمصاريف المستحدثة وغلاء المعيشة، أخبار فلسطين والعراق وافغانستان والقرن الافريقي بل القارة الافريقية خلافات الزعماء في لبنان،كوارث الطبيعة حتى الطبيعة دخلت على خط أميريكا وباتت تنافسها على الخراب، عليّ أن أفهم لماذا يحصل معي ذلك وبالذات هذه اللحظة .. اسمعي .. أنظري في وجهي وأنا أحدثك .. عليك ان تجيبي عليّ وإلا..؟!

ـ إهدأ .. المسألة أن هناك واجبات عليك القيام بها لماذا إذن تزوجتني وفرغت كل خطاباتك التراثية والتاريخية في رحمي، والآن ماذا تريد، إن لم يعجبك الحال فافعل ما تريد..

وواصلت حديثها وهي في وضع استفزازي دون ان تنظر له: نعم هناك واجبات عليك ان تقوم بها، أنت بالنسبة لي لم تعد سوى كنبة في هذا البيت، هل أنا مسؤولة عن غلاء المعيشة والحروب والكوارث الطبيعية.. هل أنا المسؤولة عما تعانيه في العمل والشارع والمقهى والحي..

ـ لم أعد سوى حيوان آدمي يخرج من البيت، ليعود إليه مدمراً من الحياة والعمل والاوامر الداخلية والخارجية.

ماذا تريد مني أن أفعل لكَ..؟

ـ هل تسمعين من جاراتك عن قصص تعيد الحياة بدلا من الثرثرات التافهة عن فلانة خرجت وفلانة دخلت ومسن تزوج بشابة ثم مات ليلة الزفاف ثم زوجها اخوها الاكبر مرة اخرى بعد انقضاء العدة، وماذا أقول: كل القصص التي تدار في هذا البيت بعد خروجي، وغيرها من ثرثرات.. فوضى مستترة في كل مكان في هذا البيت، وكأن بيتي لقاء برلماني فيما أنا مقهور غير قادر عن التعبير عن نفسي، ولا حتى في الحمام اثناء تبولي.

هل تذكرين يوما أننا جلسنا وتحدثنا دون حضور الغائب الحاضر للآخرين. ظلت صامتة يزداد التوتر لديها منبئاً بانفجار مدمر.

وجه ضربة محكّمة للتلفزيون أدى لكسره ووقوعه، ثم أخذ نفسا طويلا.. شعر ولأول مرة أنه في حالة نزاع مع كل ما يحيط به.. وأنه غير قادر على التعبير عما يجول في صدره. فقد خرج من العمل وهو مركول من مديره المتسلط الذي حسم من راتبه ثلاثة أيام، قابله في الشارع شرطي صفعه على وجهه بسبب وقوف سيارته على طرف الشارع أثناء نزوله لشراء بعض الحاجيات، وقرب الجامع أنبه إمام وخطيب الجامع لأنه لا يأتي إلى الصلاة بما في ذلك صلاة الجمعة، وعند مدخل الحي تلقى ضربات وإهانات من مجموعة من المتسكعين المشهود لهم بسوء الاخلاق في الحي، وعند دخوله وهو في حال يرثى لها قابله عند درج البناية جاره مدير المدرسة وأنبه ايضا لأنه لا يأتي إلى احتفالات المدرسة ولا يتابع شؤون أولاده.. موبخاً إياه على إهماله التربوي.

وحين دلف الى البيت واجهته زوجته بالتذمر والشكوى من أمه وأهله ومطالبته له ان يضع حداً لتدخل أسرته في حياتها، وهددته أنها ستترك البيت والاولاد، وتذهب إلى بيت أهلها إذا لم يحسم هذا الخلاف ولصالحها.

ظلت تحرك قدمها اليسرى بتوتر دون أن تنظر إليه..لم تعرف ان آخر ما فعله قبل قليل كان مشهداً أخيراً أسدل فيه الستارة على حياته ومات.. وبقيت هي تحرك قدمها اليسرى حتى توقفت الى الابد.

---

* كاتب فلسطيني